حبٌ في العتمة

"اتخذته شيخا؛ أشربها بوله"

تخيل نفسه في عالم آخر غير الأرض، وفي مكان غير الماخور. النساء، هنا، يشبهن الحور العين. فلا وجود للأجساد المكلومة والمعطوبة كما في الشارع. لا وجود للكلام النابي، وزحمة المواصلات، وتقيّؤات المارة، وخرائهم الذي يَغزو أسفل الأسوار والجدران في كل مكان...لا مجال للخطأ هنا. لاشيء سوى الجسد بكل تفاصيله، وقداسته، وقدسيته، وما يحقق قيمته ووجوده.

تساءل عن الأرواح: ماذا عن أرواح هذه الأجساد؟ هل تعيش، هي الأخرى، هذا المستوى العالي من الرفاهية؟ لا شك أن الجسد، غالبا، انعكاس لما في الروح، خاصة حينما لا يكون المال سيد المو اقف.

تقدم بخطوات بطيئة يتفرس وجوه الجِسان. يستغرب لما يحدث حوله، فلا أحد ينظر إليه نظرة استغراب، أو عداء، أو تقليل، أو قدح، أو امتعاض، أو قبول أو تباه. الكل يتصرف حسب هواه، وحسب حاجة جسده، ولا وجود لمن يُحاسب أو يَحكم. الجسدُ، هنا، حكمٌ ومحكوم.

تمنى لو أن الناس كلهم يتعاملون بالطريقة التي تتعامل بها النسوة في هذه العالم. لا يَلتفتن لأحد، ولا يَلمن أحدا على دخوله إلى عالمهن، ولا على انصر افه أو بقائه.

وبينما كان يوسف يخترق بعينيه الأجساد، ويمارس عليها غو ايته، وكَبْتَه؛ يتلذذ بها من المبدأ إلى المُنتهى، وقعت عيناه على جسد ليس

كالأجساد، كأنما نحتته أيادٍ بالأزميل. وصَاحبَ هذا النحتَ، في كلّ نَقرَة، مُوسيقى هادئة تسَلّلت إليه عبر مَسَامه؛ قطرة، قطرة، وهمسة، همسة، ونغمة، نغمة.. رأى في عيني الجسد رؤيا، وفي شعره قصيدة، وفي ثغره ليلا معتصرا، وصباحا نديا.

اقترب حتى قلّص المسافة، ثم أدركتْ أنها الهدف والضحية. أدركتْ أنها المبدأ والمنتهى، وأنها الميناء الذي سيرسو عليه، والعشّ الذي سيحط عليه، ويُفرغ فيه همومه وشجونه القديمة. هي شاطِئ الأحزان والأفراح، وجزيرة للنَّجاة من أهْوال البحر، وبِناء عشٍ جديدٍ يرمّم فيه قلبه الصدئ المُنفطر الذي لا يزال ينزُّ دما. ولعله يَعْتَرِف لها بتلك النشوة التي غزت مفاصله لحظة دخوله، وأنها ازدادت توهجا لما رآها.

قد يصدقها القول، منذ اللقاء الأول، أن شيئا ما أصابه في قلبه؛ فأثر له على نبضه، وعلى ضخ الدماء في الشرايين، وأنه أحس باختناق شديد، وارتفاع حرارة جسده، وارتباك كاد يؤدي به إلى وعكة صحية.

لكنها، للأسف، لم تبدِ له أدنى تعاطف لحاله. فكل الذين مروا من هذا المكان أحسوا بما يحسه الآن أو أكثر. هكذا تقلبت الفكرة في ذهنها. فلوصف اللذة، لا موسوعة اللاشعور تسعفُ المرءَ، ولا معجمُ "فرويده" كلّه سَيُسْعِفه. وحده الجسدُ، بكل تفاصيله، سيتخطفه كما تتخطف الشياطين والجن خبرَ السماء، وتعود به إلى وَعيه، مثلما تَعود الشياطين، حين تجد شهابا رصدا. ومع ذلك كله، فقد خفق قلبها الصدئ له؛ لابتسامته، وأرقه.

يا للذة. كيف لها أن تفعل بالمرء كل هذا الهراء؟ وكيف لها أن تدفعهُ لحزم أمتعته، ويُسافر إلى مكان، نقطة، مجهول، خَرَاء، خواء، هُراء، جنة...ليُحقق لها حاجتها؟

كيف لنا أن نسافر إلى المجهول من أجل اللذة؟ متى سقط الإنسان من مستواه المُكرّم إلى مستوى الحقارة واللذة؟ وهل اللذة، فعلا، حقارة؟ أليست هي الأصل، وما تلاها، من أخلاق ولذات، فروع ومنظومات مصطنعة؟

تذكر كلام صديقه أسي هشام الأستاذ المتقاعد: "إن اللذة وحدها تدفعنا لارتداء قميص معين، وتناول طعام معين، واختيار عمل دون آخر. تذكر، يا صديقي، أن اللذة كانت سبب نصف موتى المقابر؛ الذين ماتوا في حروب الطريق تلذذوا القيادة بسرعة مُتَخَطّفة، والرغبة في إثارة لذة المارة. الذين ماتوا انتحارا ماتوا لأنهم لم يحققوا الوصال مع الأحبة، فاختاروا الموت. حتى الموت وهو يتخطفنا، فهو يتلذذ بنا".

اللذة سبب تمسكنا بالحياة، وهي سبب تهورنا وسبب الموت المفاجئ.

اللذة دفعت بالنساء إلى التعطر، والتزين، والتمايل بالجسد. واللذة دفعت بالرجال إلى شم العطر، و إتباع النسيم المنبعث من كل جسد متمايل معطوب. لولا اللذة لما صنع العطر، ولما أنتجت الشركات آخر ماركات الأحذية، والماكياج، والأكسسورات، والأثاث، ولما نظم الشعراء القصائد، ولما حفظها العشاق كي يقرؤوها على مسامع عشيقاتهم، ولما كشفت الأرض عن نفسها تحت القمر، ولما فتحت الأرض التراب للمطر.

لولا شعور الأحرار باللذة في الاستعباد، لما اتخذوا إخوانهم عبيدا وخدما. ولولا اللذة التي يجدها العبيد في خدمة الأسياد لما أطاعوا ساعة، ولَفكّروا في كسر قيد الرق والعبودية.

اللذة مجرى مائي في كل إنسان. كُلّ وكيف يستخدم ماءه؛ منهم من يتطهر به، ومنهم من يدنس به نفسه، ومنهم من يحافظ على جريانه داخله إلى أن يجد له مخرجا، فيهلك الحرث والنسل، أو يثور على المجتمع وقوانينه وأعرافه.

يقترب من حبيبته. نعم، لقد أحبها؛ لأنه رأى وجهها كم مرة. لكن ذاكرته الثملة باللذة لا تسعفه. هل رآها في عالم الواقع، أم في عالم الحلم؟

لا يستطيع أن يتذكر، ولا أن يحدد، أو يميز. لعله أصيب بعمى الألوان، والأماكن، والأزمنة؛ فاللذة تعمي صاحبها، وتبعثر له العوالم بعد أن تخلطها.

رأى انعكاس صورته من شدة جمالها، ولمعان جسدها الندي، الطري، المدهون بمسحوق تفوح منه رائحة تشبه رائحة زهر اللوز. رأى لحيته الطويلة البيضاء، وطاقيته الصغيرة التي تشبه طواقِ الرهبان اليهود. رأى، أيضا، "فوقيته" المنكمشة بين الرّكب من كثرة الركوع والسجود. إنها تشبه في هيئتها ولونها أوراق الأشجار في الخريف. تشبه تلك الأوراق الأخيرة التي لم تيأس أبدا من التمسك بالحياة الخضراء. لكنها في الأخير استسلمت للذة الخريف.

ربما دفعتها وريقات صغيرة، بعد أن أنبأتها بالخروج، إلى الوجود. أنبأتها، أيضا، أن وقتها قد حان لتعيش، وتخضر، وتتولى مهمة تغطية وكسوة

الأغصان. وربما سقطت؛ لأنها تعلم أنها لن تتحمل ما رأته من لذة، حولها، في سنتها الماضية. وربما؛ لأن الشجرة يئست أغصانها من ثقلها الزائد، وإطعامها، وسقيها لسنة كاملة دون أن ترى منها نفعا، فقررت أن تتخلى عنها وتغيرها مثلما تغير أفعى جلدها كل عام.

نعم، تتخلى عنها بهذه السهولة، وببرودة أغصان. نعم، تتخلى عنها بعد أن علمت أن الخريف يعقبه الشتاء، وأنها أشد حاجة إلى هذه الأوراق لتقيها صقيع الشتاء. ورغم ذلك، فالشجرة لا تبالي. فحتى الإنسان قادر على التخلي عن أحبائه وقت الشدة ليبرهن لهم أنهم مجرد أوراق لا أقل ولا أكثر. فالأوراق تأتي وترحل، والأحبة يأتون ويرحلون حين تكون الشجرة هي اللذة.

حدق في عيني حبيبته بعنف، بقوة، بلذة، بلهفة...ورأى كل فصول السنة. رأى نفسه داخل حجرته يلقي الدرس على طلابه: درس اليوم بعنوان: "التعفف في الإسلام". رتل الآيات الواردة في الكتاب في وجهها، وطلب من بعض الطلاب تلاوتها، وصحح لهم بعض الهفوات؛ نبه إلى المد، والقلقلة، ودعّم بعض التعثرات...شرح الدرس بإتقان وهو ينظر إلى الفصول يُسلِم بعضها إلى بعض.

صدمه صوتها الملائكي: "تفضل يا أستاذ".

- إلى أين؟

- إلى حيث تنزع لباس التقوى والتعفف، وترتدي لباس اللذة..!

تنهد، تنحنح، أحس بالخجل، وحاول أن يغير تجاه نظره تلقاء الباب. تراجع عن فكرة الباب؛ لأنه سيسلمه إلى الشارع دون أن يجد للذة مفرغا ولا مصبا.

في لحظة تأمله هذه، جاءه الصوت مجددا:

- "شوي لربي، شوي لعبدو". هذه هي حالة الإنسان. لا يمكنه أن يظل على حالة. لا يمكنه أن يظل في المسجد طُول الوقت، ولا يمكنه أن يظل في الماخور طُول الوقت. اللذة الواحدة تقتل؛ أقصد "الروتين".

تعجب من مستوى المُحاججة والإقناع اللذين تتمتع به.

- هل تفهم حالة الإنسان؟ هل يعلمونها، في هذه الدار، دروسا عن العقيدة، والدين؟ تكفيها اللذة التي هي قابعة فيها. فهي منتشية بها، ولا سبيل للخروج منها.

ظل حائرا في تساؤلاته. مهزوما كان؛ كمن انتشى باللذة الإيروسية. شدّت يده وضغطت بكفها على كفه، وخللت أصابعها بأصابعه، وامتزج عرق كفه بـ"الكريم" الذي دهنت به يدها، اتجهت به إلى غرفة بفراش لا عين رأت، ولا أنوف شمت ما شمت أنوفه.

ها هو أمام هدفه. لكن اللذة لعنة؛ تجيء وتروح؛ تتوهج وتنطفئ، تشتعل وتخمد، تضيء وتعتم.

- ما بك يا أستاذ؟

أحس بثقل العبارة. استشعرها تتهاوى عليه، فينهار. نعم، ينهار مثلما ينهارو اقف بلذة النوم.

- كيف لها أن تعلم أنني أستاذ؟ وهل كانت من طالباتي ذات زمن مضى؟

دقق النظر في وجهها البريء، فلمح شيئا منه في عينيها. فكل أستاذ يترك جزءا من شخصيته ولذته وروحه في طلبته.